عمر بن عبدالعزيز

د. عبدالله بن محمد حفني

إمام وخطيب جامع هيا العساف بالجميزة

موقع جامع هيا العساف :

<http://www.hayaalassaf.com>

القناة الرسمية على اليوتيوب :

<https://www.youtube.com/channel/UCq3VB0Xi1Zorm3_Hje4JaCw>

الأولى

يا كرام ..

اجمعوا، واكتبوا ما شئتم من مكارم الأخلاق ، ومعالم البر والإحسان التي يسموها الرعيّة في الراعي، والأبناء في الآباء، والمتعلمون في المعلّمين والمربّين والقدوات، حتى إذا جمعتم ما شئتم من الشمائل ، والمحاسن جئتكم بها اليوم في شخصٍ وحاكمٍ ، وعالمٍ حمل الصلاح، والإصلاح، والعلم، والعمل، والأمن، والإيمان.

الحديث اليوم عن المعجزة والأعجوبة الباهرة ..

عن إمام ذاعت أخباره وخلد التاريخ اسمه ..

فمن أين أبدأ ؟ وكيف أبدأ ؟

فالقلم يعجز عن التعبير ، واللسان يتلعثم عن النطق

نحن اليوم على موعدٍ مع الإمام العادل، العالم العابد، القدوة الصالح، التقي المخبت الخائف الخاشع ، الخليفة الزاهد في الدنيا المشتاق للآخرة، نصير الفقراء والضعفاء،.

إن نشدته بين العبّاد وجدته التقي النقي المستغفر بالأسحار،

إن طلبته بين الأبطال ألفيته الكميّ الحمِىَّ (الشجاع المحامي) لإعلاء كلمة الله.

إن بحثت عنه بين الولاة رأيته القوي الأمين على أموال المسلمين.

إذا ذكر العدل وجدته رمزاً من رموز العدالة، مَلِكٌ ولولا أنه كان بشراً لقلت أنه مَلكاً، سيرته عدل لمن أراد القضاء، قصته عبرة لمن أراد العظة والعبرة.

عمر بن عبدالعزيز بن مروان بن الحكم القرشي الأموي .

إني لأشعر إذْ أغشى معالمه

كأنني راهب يغشى مصلاه

الله يعلم ما قلّبت سيرته

يوماً وأخطأ دمع العين مجراه

عمر بن عبدالعزيز ملك في ثوب زاهد،،

سلطان في جلباب عابد ،،

ملك الدنيا فصار فقيراً، وتذكّر الآخرة فأصبح كسيرا.

عمر بن عبدالعزيز التجديد في أصالة ، الترشيد في علم ، البناء في هدوء ، القضاء على الأعراف بالشرع وعلى التقليد بالإتباع وعلى الفوضويّة بالنظام .

عمر بن عبدالعزيز حُكْمٌ بلا رشوة، صرامة بلا ظلم، شجّع العلماء فجلسوا في المساجد يعلّمون،،

علّم الشجعان الجهاد فرابطوا في الثغور يكافحون ويناضلون،،

ألهب همم الشباب فتوجهوا للعلم يحفظون ويحصّلون

عمر بن عبدالعزيز خليفة لكنه واعظ،،

سلطان لكنه عالم ، ملك لكنه زاهد ،،

هو خطيب الجمعة إذا برز المنبر ،،

هو إمام الصلاة إن أقيمت ،،

هو المفتي إذا أعضلت المسائل واشتبهت الأمور ،،

يسمر مع العلماء فعلمٌ وعمل،،

يسهر مع الفقهاء ففقهٌ وأدب ،،

يأكل مع الفقراء فلا كبر ولا استعلاء .

عمر بن عبدالعزيز أخذ من أبي بكر الخشية، ومن عمر العدل، ومن عثمان البذل، ومن علي العلم .

عمر بن عبدالعزيز بيته من طين، مركبه بغله ، لباسه بدراهم معدودة، طعامه خبز وزيت؛ لكنه نذيرٌ لقوم غافلين لاهين .

يقول الذهبي يرحمه الله في السير (5/120) : كَانَ حَسَنَ الخَلْقِ وَالخُلُقِ، كَامِلَ العَقْلِ، حَسَنَ السَّمْتِ، جَيِّدَ السِّيَاسَةِ، حَرِيْصاً عَلَى العَدْلِ، وَافِرَ العِلْمِ، فَقِيْهَ النَّفْسِ، ظَاهِرَ الذَّكَاءِ وَالفَهْمِ، أَوَّاهاً، مُنِيْباً، قَانِتاً للهِ، حَنِيْفاً، زَاهِداً مَعَ الخِلاَفَةِ، نَاطِقاً بِالحَقِّ مَعَ قِلَّةِ المُعِيْنِ، وَكَثْرَةِ الأُمَرَاءِ الظَّلَمَةِ ، َعُدَّ عِنْدَ أَهْلِ العِلْمِ مِنَ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِيْنَ، وَالعُلَمَاءِ العَامِلِيْنَ.

أيها الإخوة وقفات مع هذا الإمام المعجزة،

وقفات مع رجل داس على حطام الدنيا وزخارفها، وانقلب من النقيض إلى النقيض، ضحّى بثروته وعافيته، نشأ وهو يتقلب في النعيم والرفاهية ويضمخ ثيابه بأغلى العطور، ويسكن أعلى القصور ويلبس أبهى الحلل ويأكل أطيب الطعام .

يقول الليث بن سعد يرحمه الله :

كَانَ عمر بن عبد الْعَزِيز أعظم أموي ترفها وتملكا غذي بِالْملكِ وَنَشَأ فِيهِ لَا يعرف إِلَّا وَهُوَ تعصف رِيحه فتوجد رَائِحَته فِي الْمَكَان الَّذِي يمر فِيهِ وَيَمْشي مشْيَة تسمى العمرية فَكَانَ الْجَوَارِي يتعلمنها من حسنها وتبختره فِيهَا . سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الإمام مالك بن أنس وأصحابه، ص26.

لكنه جمع المكارم كلّها فقد عزف من صغره عن الإختلاط بأترابه من الصبيان والغلمان فطلب العلم في صباه، فحفظ القرآن، وجالس العلماء، ولازم حلق الذكر والعلم، وتفقه في الدين، وظهرت عليه مخايل العظمة، ودلائل الخشية والإنابة، وما بلغ الشباب حتى كان من صدور العلم ومن علماء العصر . يَقُولُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ : مَا صَلَّيْتُ وَرَاءَ أَحَدٍ ، أَشْبَهَ بصَلَاةِ رَسُولِ اللَّهِ @ مِنْ هَذَا الْفَتَى - يَعْنِي عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ - . رواه أبو داود .

قال ميمون بن مهران:

كَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ مُعَلِّمَ العلماء. تاريخ أبي زرعة الدمشقي، ص340.

ويقول مجاهد:

أتينا عمر نُعَلِّمُهُ فَمَا بَرِحْنَا حَتَّى تَعَلَّمْنَا مِنْهُ. البداية والنهاية (9/219) .

وقال الذهبي يرحمه الله:

كان عمر يقرن بالزهري في علمه. تذكرة الحفاظ، ص106 .

وقال النووي يرحمه الله :

أجمع العلماء على جلالة عمر وفضله ووفور علمه وصلاحه وزهده وورعه وهو أحد الخلفاء الراشدين ومناقبه أكثر من أن تحصى .

أراد الله بالأمة خيرا وتولى عمر بن عبدالعزيز الخلافة وهنا وقع الانقلاب الحقيقي في حياة هذا الإمام ، هنا حصلت المعجزة التي خبأها الله لنصرة دينه .

مرض الخليفة سليمان بن عبدالملك واشتد به المرض وأصبح يعيش آخر لحظات حياته ويقول :

يا من لا يزول ملكه إرحم من قد زال ملكه .

يقول الرجل الصالح رجاء بن حيوة يرحمه الله دخلت على سليمان بن عبدالملك وهو في الرمق الأخير فقال: من ترى لهذا الأمر ؟

قال رجاء فقلت اتق الله فإنك قادم على الله وسيسألك عن هذا الأمر وما صنعت فيه ؟

قال فمن ترى ؟

قلت : عمر بن عبدالعزيز وأنطق الله سليمان بن عبدالملك بكلمة تعد من أعظم حسناته واختار عمر بن عبدالعزيز خليفة للمسلمين وكان هذا الرأي من أعظم مناقب وحسنات سليمان بن عبدالملك، وجزى الله الجليس الصالح والمستشار المؤتمن رجاء بن حيوة على رأيه السديد، ومات سليمان بن عبدالملك، وتلقى عمر بن عبدالعزيز خبر الخلافة فانصدع قلبه بالبكاء، وأصبح يرتجف كالعصفور ولم يستطع القيام من هول المسئولية وقال والله ما سألتها في سر ولا علن، فأخذوا بكتفيه وصعد المنبر وتعثر في القيام والكلام، وقام الناس يبايعونه على الخلافة فقال يا أيها الناس إنما ابتليت بالخلافة على غير رأي مني وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي فاختاروا لأنفسكم خليفة فاهتز المسجد وعلا البكاء وقال الناس اخترناك يا أمير المؤمنين وأقبلت عليه الجموع لمبايعته، أقبلت النفوس المتلهفة للعدل والمشتاقة للصالحين المصلحين فقام وألقى خطبة عصماء فوعظ وأوصى الناس بتقوى الله وطاعته وقال : أطيعوني ما أطعت الله فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم ثم ذكر الموت ولقاء الله وذكر بالآخرة وعاقبة الإساءة والإحسان وبكى من كان في المسجد، يقول رجاء بن حيوه والله لقد كنت أنظر إلى جدران بني أميّة ونحن نبكي هل تبكي معنا .

ونزل عن المنبر واستلم زمام الحكم وارتجت الأرض من دبدبة الموكب الرسمي وجيء إليه بالمواكب والجياد كما كان يفعل بمن سبقه فنظر إليها بطرف عينه وقال: ما لي ولهذه المراكب نحُّوها وقرّبوا إليَّ بغلتي فإن لي بها بلاغا .

وعاد إلى بيته معلنا أن من تواضع لله رفعه ، عاد إلى بيته يئن تحت وطأة المسئولية وعظم الأمانة .

فقد عَلِم عمر أن الحكم أمانه وأن الأمارة عبءٌ وندامة أيقن عمر أن النبي @ يقول «كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»

تقول زوجته فاطمة بنت عبدالملك - رحمها الله - : دخلت عليه بعدما تقلّد الحكم وهو في مصلاّه ودموعه تجري على لحيته فقلت أحدث شيء فقال يا فاطمة إني تقلدت أمر أمة محمد @ فتفكرت في الفقير الجائع ، والمريض الضائع، والعاري المجهود ، واليتيم المكسور ، والمظلوم المقهور ، والأرملة الوحيدة ، والغريب الأسير ، والشيخ الكبير ، وذي العيال الكثير والمال القليل ، فعلمت يا فاطمة أن الله سيسألني يوم القيامة عنهم فبكيت خوفا من السؤال ، بدأ عمر خطة السير وأراد أن يقهر الزمن لمشيئة التغيير فلم يصبر يوما على خطأ قديم وأراد أن يرد الأمة إلى الله عز وجل فبدأ بنفسه وهجر المناعم والمباهج ، والثياب الجميلة ، والعبير الفوّاح، ولاذ بشظف العيش وبلغ من الزهد مبلغا يعجز عنه الزهاد فضلا عن الملوك والأمراء فقد كان يتأخر عن الخروج لصلاة الجمعة انتظارا لقميصه أن يجفّ .

أعاد عمر الحق إلى أهله والأمور إلى نصابها وأرسى دعائم العدل وعزل الوزراء الخونة الظلمة وردّ المظالم إلى أهلها، ردّ الأموال الهائلة والثروات العظيمة ، وردّ الجواري إلى أهلهنّ وبلادهن وخرج من ماله وعقاره وردّه إلى مال المسلمين ووضع حلى زوجته في بيت مال المسلمين ، وأرسل إلى علماء الإسلام والناصحين يطلب نصيحتهم ويعمل بمشورتهم وقال في خطابه إني قد ابتليت بهذا الأمر فأشيروا إليّ فكتب العلماء الصادقون له من الرسائل ما تتقطع من خوفه القلوب كتب له الحسن البصري يرحمه الله : ( يا أمير المؤمنين إن استقمت استقاموا وإن ملت مالوا يا أمير المؤمنين لو أن لك عمْر نوح وسلطان سليمان ويقين إبراهيم وحكمة لقمان ما كان لك بدَّ أن تقتحم العقبة ومن وراء العقبة الجنة أو النار من أخطأته هذه دخل هذه يا أمير المؤمنين أن طول البقاء إلى فناء فخذ من فنائك الذي لا يبقى لبقائك الذي يبقى).

وكتب له مطرف بن عبدالله : ( يا أمير المؤمنين لو كان لك خصم لدود لأعجزك فكيف بخصمين ؟

كيف بثلاثة؟ وكيف بك وخصمك أمة محمد @؟ )

فأيقن الخليفة عمر بعظيم مسئولته، فحارب الظلم بشتى صوره وأظهر العدل بأروع صوره.

يقول مالك بن دينار :

لمّا ولي عمر بن عبدالعزيز يرحمه الله الحلافة قالت رعاة الشاة في ذروة الجبال من هذا الخليفة الصالح الذي قد قام على الناس ؟

فقيل لهم : وما علمكم بذلك ؟

قالوا إنّا إذا قام على الناس خليفة صالح كفّت الذئاب والأسد عن شأننا .

وعمّ الخير واطمأن الناس في كل رقعة من الأرض حتى اختفى الفقر وعزّ من يستحق الزكاة ويقبلها

كان رحمه الله يطوف في ظلمة الليل يتحسّس الأرامل والمحتاجين ويتفقد الأيتام والمساكين وكان مناديه ينادي في كل يوم .

أين الغارمون ؟ أين الناكحون ؟ أين المساكين ؟ أين اليتامى ؟ حتى أغنى كلاّ من هؤلاء حتى كان الناس يهتفون في أدبار الصلوات اللهم اسق عمر بن عبدالعزيز سلسبيل الجنة، إنّ السّرّ في حياة عمر بن عبدالعزيز ليس في زهده وحكمه لكن السّرّ العظيم في حياته يكمن في إيمانه بالله واليوم الآخر وخشيته من الله تعالى وشوقه إلى الجنة .

كان شديد المحاسبة لنفسه ورعا تقيا كثيرا ما كان يقرأ هذه الآية ﭽﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﭼ الأنعام: ١٥

شديد الخوف لله سريع الدمعة غزير العبرة

قال يزيد بن حوشب: ( ما رأيت أخوف من الحسن وعمر بن عبدالعزيز كأن النار لم تخلق إلا لهما ).

جاء يوما يزور بيت مال المسلمين فشمّ رائحة الطيب فأمسك بأنفه مخافة أن يجد ريحه فقالوا ما شأنك يا أمير المؤمنين فقال أخشى أن يسألني الله تعالى يوم القيامة لمَ شممت طيب المسلمين في بيت المال .

جلس يوما يقسم بين الناس تفاح الفيء ، فجاء طفل له يحبو فأخذ تفاحة فانتزعها من فيهِ فذهب الطفل إلى أمه يبكي فأخذت درهما واشترت له تفاحا فلما جاء عمر وجد ريح التفاح فقال: يا فاطمة هل أتيت شيئا من الفيء ؟

قالت : لا، وقصّت عليه القصة؛ فقال: يا فاطمة لقد انتزعت التفاحة من ابني والله لكأني أنتزعها من قلبي ولكني كرهت أن أبيع نفسي من الله بتفاحة من فيء المسلمين.

ورب الكعبة أن مشهدا كهذا يعجز اللسان أن يعلق عليه بشيء ولكن ﭽﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﭼ فصلت: ٣٥

تقول فاطمة – رحمها الله - للمغيرة ما رأيت أحدا أشد خوفا من ربه من عمر بن عبدالعزيز، يبكي إذا قرأ القرآن، يبكي إذا ذكر الموت، يبكي إذا ذكر الرعية وعظم المسئولية ، ثم قالت والله لا أعلم أنه أغتسل من جنابة ولا احتلام منذ أستخلف.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم ..

الثانية

ولكن وما أصعب ولكن فبعد عامين وخمسة أشهر من هذه الخلافة الرائدة والتي كانت كفصل ربيع في عالم الدين والأخلاق وعند التمام يحسن الختام فقد حلت النهاية وجاءت ساعة الصفر واشتد به المرض ودخل عليه الأطباء وحضرت سكرات الموت وساعات الوداع فبكى الجياع بكى الجياع الذين شبعوا وبكى الخائفون الذين أمنوا بكى الناس جميعا وجمع أبنائه فلما رآهم بكى ودمعت عيناه وقال لأبنائه: والله ما خلفت لكم من الدنيا شيئا إن كنتم صالحين فإن الله يتولى الصالحين وإن كنتم غير صالحين فلا أعينكم على معصية الله، ثم دعاهم وقبلهم واحدا واحدا وخرج الأبناء فجعل يبتهل إلى الله في خشوع وهو يقول رباه أنا الذي أمرتني فقصرت رباه أنا الذي نهيتني فعصيت رباه ما عندي ما أعده إلا خوفي منك وحسن ظني بك ، ودخلت عليه فاطمة فودعها وأوصاها بتقوى الله ثم قال : يا فاطمة أني أرى نفراً ليسوا بإنس ولا جن، وإذا بموكب الملائكة قد تنزل فقال انصرفي يا فاطمة، فخرجت والدموع تنهمر من عينيها وأغلقت الباب ودخلت الملائكة على عمر بن عبدالعزيز وسمعته فاطمة وهو يتلو هذه الآية ﭽﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲﯳ ﭼ القصص: ٨٣

وأسلم الروح إلى بارئها فأسكت فمٌ لطالما لهج بذكر الله وأغمضت عيناً لطالما ذرفتا من خشية الله .

لو أعظم الموت خلقاً أن يواقعه

لعدله لم يصبك الموت يا عمر

كم من شريعة حق قد نعشت لها

كادت تموت وأخرى منك تنتظر

يا لهف نفسي ولهف الواجدين معي

على العدول التي تغتالها الحفرُ

يقول رجاء كنت ممن غسله وكفنه وأدخله لحده وحللت العقدة من كفنه ثم نظرت إلى وجهه فإذا هو كالقراطيس بياضاً، نظر إلى وجهه وإذا بوجهه يشع نورا أنار الدنيا بعدله فأنار الله قبره لقد فزت يا عمر ليهنك الذكر الحسن يا عمر لقد أصبح الترحم على هذا الخليفة الزاهد سهلا على ألسنة الصبيان والناس، لقد أصبحت حياة هذا الإمام سيرة لا تسئمها النفوس ولا تملّها الآذان .

حلف الزمان ليأتينّ بمثله

حنثت يمينك يا زمان فكفّر

أيها الأخوة الفضلاء ، لنكن صرحاء فلا أنا ولا أنتم نستطيع أن نتصوّر هذا النموذج الفذّ ، فنحن اليوم قد ملئت أذهاننا بمشاغل الأرض ، ولذائذ العيش ، وغرقنا في صغائر الحياة عن غاية الحياة ، فصرنا إذا سمعنا عن أخبار هؤلاء لم ندركها ولكنّها حقائق عاشها الكبار ، وصدق القائل :

إنَّ للَّهِ عِبَاداً فُطَنَا تَرَكُوا الدُّنْيَا وَخَافُوا الفِتَنَا

نظروا فيها فلما علموا أنها ليست لحيٍّ وطنا

جعَلُوهَا لُجَّة ً وَاتَّخَذوا صالحَ الأعمالِ فيها سفنا

والله لا أدري كيف أختم هذه السيرة الطيبة وهذه الحياة الكريمة ولكن نسأل الله أن يوقظنا من الغفلة ويحشرنا في زمرة هؤلاء وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا